المدارس اللّسانية

المستوى: السنة الثانية – نقد

الأستاذ: عبد الرحمان ديكي

المدرسة الوظيفية

تندرج اللسانيات الوظيفية في التيار البنيوي ، فهي فرع من فروع البنيوية، المنتقدة للمدرسة التاريخية، لكنها ترى أنّ البنية النحوية والدلالية والفونولوجية للغات **تحدّد بالوظائف المخ لفة التي تقوم بها في المجتمِ** .

وظهر الاتجاه الوظيفي إلى الوجود مع حلقة "براغ" التي استفادت من آراء "سوسير"، وجعلتها منطلقا لها، فكونت لنفسها نظرية لغوية، وحدّدت هذه المدرسة منهجا لنفسها بالانطلاق من تحديد للغة باعتبارها نظاما وظيفيا يهدف إلى تمكين الإنسان من التعبير والتواصل. **فهدف اللغة عند أصحاب هذه المدرسة** هو ***التواصل*** ، ودراستها ينبغي أن تراعي ذلك، فكل عنصر يساهم في التواصل ينتمي إلى اللغة، وكل ما ليس له دور في ذلك فهو خارج عنها، لكن هذه النظرية الوظيفية لم تتبلور في كل مظاهرها إلاّ مع " أندريه مارتيني *André Martinet* ".

ظهرت هذه الحلقة متأثرة بمفاهيم اللسانية المتصلة بالفونيم Phoneme ، honème . وهي أصغر وحدة صوتية مجردة ومميزة في اللّغة غير دالة : مثل كلمة نوم: وفيها ثلاثة فونيمات نون واو مي ، والتي اعتبرت قاعدة قامت عليها المبادئ الفونولوجية لهذه المدرسة **علم الصيانة أو علم وظائف الأصوات** :Phonology ،وقد اتفق أعضاؤها على اتخاذ الفكرة التركيبية والوظيفية في اللغة كأساس في الدراسة اللغوية، وصاغوا جملة من المبادئ الهامة، تقدّم بها جاكبسون"، وقد بلغت هذه المدرسة أوج تطورها في الثلاثينيات، لكن نشاطها لم يستمر إلاّ لعشر سنوات، بسبب الحرب ، لكن أعمالها ازدهرت في أمريكا ممثلة في أعمال "جاكبسون" وفي فرنسا ممثلة في أعمال "مارتيني".

مبادئ هذه المدرسة:

* انطلقت هذه المدرسة من تحديد للغة باعتبارها نظاما وظيفيا، لذلك ركّزت على دراسة هذه الوظيفة الحقيقية للغة، والمتمثلة في الاتصال (كيف يتم ؟ ولمن يوجه ؟ في أي مناسبة ؟)، لأنّ اللغة في المقام الأول نظام للاتصال والتعبير من أجل الرقي والتفاهم المشترك.

* اللغة ظاهرة طبيعية واقعية ، لها صلة في البنية الاجتماعية، بعضها يتصل بالسامع، وبعضها يتصل بالموضوع الذي يدور حوله الاتصال أو الكلام، ومن ثم فمن الضروري أن نفرق بين لغة الثقافة بصفة عامة وبين لغة الأعمال الأدبية، وبين لغة المجلات العلمية ولغة الصحف اليومية، وبين لغة الشارع ولغة المكتب ...

* واللغة لها صلة بكثير من المظاهر العقلية والنفسية الإنسانية، بذلك يكون البحث اللغوي قائما على العلاقة بين البنية اللغوية والأفكار والعواطف التي توصلها هذه البنية.

* تختلف اللغة المنطوقة عن اللغة المكتوبة، وهما ليستا متطابقتين، فلكل واحدة منها خصائصها المميزة، فاحتاج البحث إلى دراسة العلاقة بينهما دراسة علمية.

*استـ ت هـذه المدرسـة مفـاهيم "سوسـير" في الدراسـة الوظيفيـة للصـوت اللغـوي، مثـل التقابـل، النظـام، العلاقـات التركيبيـة والاستبدالية، ثنائية اللغة والكلام وغيرهم.

* الدراسة الوصفية للغة هي المنطلق الأول، لما تملك من تأثير مباشر على الواقع ا لغوي الفعلي، لمعرفة جوهر اللغة وخواصها المميزة، مع اعتـ ار الدراسة التاريخية من البحث اللغوي، اعتبار تصور اللغة كنظام وظيفي (يهدف إلى تحقيق التواصل ، فـ ي دراسة لا ينبغي أن تهمل فكرتي النظام والوظيفة، كما أنّ الوصف لا يمكن أن يهمل فكرة التطور، ومن هنا لا يمكن الفصل بين الدراستين، وهذا ما ألح عليه "جاكبسون"، في أنّ الطابع الوظيفي للغة يجب أن يشمل الحالة الآنـ ة للغة والحالة التاريخية أيضا.

* إنّ البحث الفونولوجي يجب أن يتجه أولا إلى دراسة التقابلات الفونيمية (الصوتي ، لأنها ذات دلالة ومعنى على المستوى المورفولوجي (البنية ، ومن ثم لا ينبغي فصل الظاهرة المورفولوجية عن الظاهرة الفونولوجية، فعادة ما ترتبط التقابلات الفونيمية بالتغـ ات الصرفية.

لقد قامت هذه المدرسـ ة على اعتبار المستوى الصوتي للغـ ، فأهم إنجاز قدّمته هو مناقشاتها الواسعة حول مفهوم الفونيم، فأ امت نظرية كاملة في التحليل الفونولوجي، ويعدّ " تروبتسكوي" مؤسس علم الفونولوجيا أو علم الأصوات الوظيفي .

إنّ الفونيم هو وحدة وظيفية قبل كل شيء هي كيان مجرد وليست صوتا في ذاتها، بمعنى أنها ليست مجرد طائفة من الأصوات لكنها وحدة فونوا جية مركبة تتحقق عن طريق الكلا .

ووضع "تروبتسكوي" بعض القواعد ليسهل التمييز بين الفونيم ووجوه تأديته، وهي:

- إذا جاء صوتان مختلفان من اللغة نفسها في سياق واحد ولا فرق بينهما، ويمكن مع ذلك اسـ بدال أحدهما بالآخر دون أن يتغير معنى الكلمة، فهذان الصوتان هما وجهان اختياريان لفونيم واحد، مثل صوت (R) في اللغة الفرنسية و صوت النون في اللغة العربية، حيث ينطقان بصور مختلفة، وهذه الصور هي صور نطقية لنفس الفونيم، وتسمى بـ :" *Variante* أو *Allophone* .

- إذا جاء صوتان في الموقع الصوتي نفسه، ويتغير المعنى عند استبدال أحدهما بالآخر، فهذان الصوتان تأديتان لفونيمين مختلفين(هناك صوتان مختلفان ويمثلان حرفين مختلفين)، مثل الراء والغين في العربية فكلاهما فونيم.

+ قد تختلف تأدية الوحدات الصوتية إذا جاورت حروفا معينة، مثل الحركات في اللغة العربية عند مجاورتها للحروف المفخمة، وفي غير هذا الموقع فهي مرققة، وهذا لا يؤثر في المعنى.

وتندرج أفكار "تروبتسكوي" في إطار المفهوم الوظيفي الذي نادت به هذه المدرسة، ولقد بدأ أبحاثه من حيث انتهى "سوسير"، حيث أقام تصوره للفونـ م على التفرقة التي وضعها "سوسير" بين الثنائية لغة/كلام، حيث ينتمي الفونيم إلى مفهوم اللغة بالمعنى السوسيري، أما الأصوات فتنتمي إلى الكلام، بمعنى أنّ "تروبتسكوي" فرق بين علم الأصوات (الفونتيك) وعلم الأصوات الوظيفي (الفونولوجيا).

. الفونتيك: يحلّل أصوات لغة وهي مستقلة عن غيرها، أي من حيث كونها مادة منطوقة، وبغض النظر عن أدوارها في البناء اللغوي، والوحدة التي يعالجها هي الألوفون و يتفرع هذا العلم إلى :

*علم الأصوات النطقي : والذي يهتم بكيفيات إصدار الأصوات، وتحديد مخارج الأصوات وبيان صفاتها.

*علم ا! صوات الفيزيائي : والذي ينظر في الذبذبات التي تحدثها الأصوات في الهواء فيدرسها ويحللّها.

علم الأصوات السمعي : والذي يهتم بوقع هذه الأصوات في أذن السامع، وهذا الفرع ذو جانبين:

° جانب عضوي أو فيزيولوجي: وينظر في الذبذبات التي تستقبلها الأذن، وفي آلية الجهاز السمعي ووظائفه عند استقبال الذبذبات.

° جانب نفسي: وينظر في تأثير الذبذبات على أعضاء السمع، وعملية إدراك السامع للأصوات، وكيفية هذا الإدراك.

ـ الفونولوجيا : وتعالج قيم ووظائف الأصوات (الفونيمات) داخل البناء اللغوي، بوصفها وحدات فونولوجية مجردة. فـ "النون ـ مثلا ـ في كلمة : "نهر" من الناحية النطقية غير النون في كلمة "من"، والفتحة الأولى في "بطر" غير الثانية والثالثة، وما يجعلنا نسوي بين هذه التنوعات الفردية الراجعة إلى سياق صوتي معين، ونعتبرها صوتا واحدا، كونها متطابقة من حيث الوظيفة، رغم اختلافها في التكوين.

تؤدي الفونيمات وظيفتين، وهما :

- وظيفة إيجابية : حينما يساعد على تحديد معنى الكلمة التي تحتوي عليه، ففونيم "النون" مثلا يشترك مع غيره من الفونيمات في تحديد معنى كلمة "نهر".

- وظيفة سلبية : حينما يحتفظ بالفرق بين كلمة ما من حيث المعنى والكلمات الأخرى، فكلمة "نهر" مختلفة عن كلمات مثل : "سهر، مهر...".

ويرى" تروبتسكوي" أنّ الوظيفة الأساسية للوحدات الفونولوجية هي "الوظيفة التمييزية *la Fonction distinctive* "، فما يساعد على تعريف الفونيم تعريفا علميا هو أنه يدخل في تضاد أو تقابل فونولوجي، إذ ليس بإمكان أي فونيم تأدية وظيفة تمييزية إلاّ إذا كان مضادا لفونيم آخر، ويعرف التضاد بقوله:" إنه كل تضاد فونولوجي بين صوتين مختلفين يمكن أن يميز بين معان فكرية في لغة معينة"، ومن أمثلة التضاد التقابل بين الأصوات من حيث صفتي الجهر والهمس وذلك بين: س/ز، ت/د، ث/ذ، والتقابل من حيث المخرج بين: ب/خ، م/ع.

والوظيفة التمييزية التي تؤديها الوحدة الصوتية ليست وظيفة ذاتية تكمن في طبيعة الصوت، إنما هي نتيجة لاصطلاح وتواضع الجماعة اللغوية، لذلك اختلفت الوظائف التي تقوم بها الأصوات في اللغات على اختلافها، فالراء والغين فونيمان في اللغة العربية يفرقان بين المعاني، وهما فونيم واحد في اللغة الفرنسية.

والفونيمات قادرة على التمييز بين الكلمات في كل اللغات لا من حيث إبدالها بفونيمات أخرى فحسب، بل من حيث ترتيبها وموقعها في البنية اللغوية، مثل التقابل بين *Cat* و *Act* في اللغة الإنجليزية، حيث تكونت هذه الكلمات من الفونيمات نفسها لكن بترتيب مختلف، وهذا يشبه إلى حدّ كبير فكرة التقاليب والتباديل في الاشتقاق الأكبر، وهي الفكرة التي بنى عليها الخليل بن أحمد الفراهيدي معجمه "العين" ، ومثل هذه الفونيمات هي فونيمات تركيبية، وتشمل كل الصوامت والصوائت، وهناك فونيمات أخرى فوق تركيبية، وتتمثل في النبر، والتنغيم وطول الصوت...

وأضاف "جاكبسون" فكرة الملامح المميزة " *Traits distinctifs* "، والتي طورت الدراسة الفونولوجية، ويقصد بها الخصائص الصوتية التي تميز فونيما عن فونيم آخر، بمعنى أنّ كل ملمح مميز يقف في تقابل محدّد مع غيابه أو مع ملمح آخر في فونيم آخر، مثل b / p d / t (التقابل من حيث صفتي الجهر والهمس).

والفونيم عند "جاكبسون" مجموعة من الملامح المميزة التي تنبع من الخصائص النطقية السمعية، والتي تحدّد كل صوت من أصوات اللغة، كالمخرج وصفات الصوت، ونظرا لدقة هذه الملامح استعان "جاكبسون" في تحديدها بآلات خاصة لتحليل الأصوات على شكل موجات صوتية، وتطورت هذه الدراسة وأصبحت تعرف بـ :" علم الأصوات التجريبي أو الآلي".

واشتهر "جاكبسون " بنظ ته الفونولوجية التي تنص على وجود نظام سيكولوجي كلّي (*Universel*) تشترك فيه جميع اللغات، ويرى أنّ الاختلافات في أصوات اللغات عبارة عن اختلافات سطحية لنظام تحتي ثابت، وبين أنّ هذا النظام الفونولوجي الكلّي يتضمن اثنتي عشرة سمة ثنائية مميزة تتصف بها كل ا لغات منها: مجهور/ مهموس، صائت/صامت، زفيري/شهيقي، أنفي/شفهي، غليظ/حاد...

ومن هنا ظهرت نظرية الفونولوجيا عند أعضاء مدرسة "براغ"، التي تميز بين أصوات اللغة من حيث وظيفتها أو دلالتها، فاللغة لا تميز الصوت على أساس إنتاجه، بل على أساس التقابلات بين الأصوات ا تي تميز الكلمات، فلكل صوت مجموعة من السمات والملامح التي تميزه عن أصوات اللغة الواحدة.

وتعتبر هذه النظرية أول تعميق منهجي لنظرية "سوسير" في اللغة، التي ترى أنّ اللغة نظام من العلامات يتقابل بعضها مع البعض الآخر، ووصف هذه الوحدات لا يتم إلاّ بالنظر إلى علاقة كل عنصر بما يجاوره من العناصر الأخرى، وبناء على هذا المفهوم للفونيم ووظيفته اللغوية وقيمته في التحليل اللغوي أقامت مدرسة "براغ" نظرية الفونيم، وهذه النظرية كانت تهتم بالعلاقات الاستبد ية بين الفونيمات (أي التقابل بين الفونيمات) في نقطة معينة من ال كيب الفونولوجي، بدلا من العلاقات التركيبية التي تحدّد كيفية تنظيم الفونيمات في وحدات اللغة.

وقد أثبتت الدراسات اللغوية فيما بعد أنّ هذه النظرية استطاعت على المستوى التطبيقي والعملي أن تحل كثيرا من المشكلات العلمية في تعلّم اللغات، كما ساعدت على اكتشاف ب ض أخطاء النطق، والاتجاه الذي ينبغي أن يسير فيه علاج مثل هذه الأخطاء، أما على المستوى النظري فقد كشف التحليل الفونولوجي عن النظام الذي تنطوي عليه وظيفة الصوت داخل النظام اللغوي لأي كلمة، ولم تقتصر جهود هذه المدرسة على دراسة الفونيم والنظرية الفونولوجية، إذ قامت بعدد من المساهمات في مجالات علم اللغة الأخرى مثل علم الأسلوب، ودراسات في النحو وعلم الصرف.

إنّ البرنامج الذي وضعته مدرسة "براغ" بزعامة "تروبتسكوي" و"جاكبسون" يعدّ إسهاما من لون جديد يتصل بفلسفة البحث اللغوي أو بأهداف النظرية اللغوية، حيث انبثقت عنه لعديد من المبادئ والأفكار التي وجهت الفكر اللغوي وأنظار علماء اللغة إلى ميادين من البحث اللغوي، ودراسات لم تظهر آثارها إلاّ فيما بعد، فالمبدأ القائل بأنّ اللغة تظهر في مستويات متعدّدة من الأشكال قد فتح آفاقا جديدة في دراسة علم اللغة الاجتماعي ودراسة الأس وب وغيرها.